قراءة في شعرية الكتاب

يعدُّ ابن قتيبة المتوفى (٢٧٦هـ) واحداً من الفقهاء والمحدثين العرب وأنموذجاً لأدبائهم . فضلاً عن ذلك أنه واحد من روّاد نقّادهم الكبار .

((هو عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري ، أبو محمد من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين . ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم تولى قضاء الدينورة [...] ، توفي ببغداد . من كتبه : (تأويل مختلف الحديث ، والمعارف ، والمعاني ـ ثلاثة مجلدات ـ ، وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، والإمامة والسياسة [...] ، والأشربة ، والرد على الشعوبية ، وفضل العرب على العجم ، والرحل والمنزل ، والاشتقاق ، ومشكل القرآن ، والمشتبه من الحديث والقرآن ، والعرب وعلومها ، والميسر والقداح ، وغريب القرآن ، والمسائل والأجوبة ، والنبات)))[١] ، وكتاب (أدب الكاتب) .

لستُ أزعمُ في قراءتي هذه الحديثَ عن حياته أو شيوخه وعلمه ، بقدر ما في الحسبان من قراءةٍ نقدية لكتابه (الشعر والشعراء) ، وهي رغبةٌ راودتني قبل سنتين عندما كنتُ أتطلع في مقدمته النقدية الرائدة . فوجدتُ فيها ما يستأهل الحديث والتعقيب على بعض المسائل التي خصَّ بها ابنُ قتيبة القول والرأي عن مفهوم الشعر وتقييمه للشعراء .

إذا كان نقادنا المحدثون قد أولوا بعضاً من جهودهم النقدية من أجل التقويم والنظر في مظانّ كتاب ابن قتيبة هذا ، فإنهم ـ في حدود ما أعلم ـ قد فاتهم الاعتماد على المنهج التعليلي المستند إلى التحليل المعمّق لشواهده الشعرية ، مما فوّتَ عليهم ذلك فرصة الكشف عن بعض الأخطاء التي وقع فيها ابنُ قتيبة وهو يفصِّل القول في طبيعة الشعر . وهذا لا يمنع من وجود تعليلاتٍ عامة أشار إليها بعضُهم ، وهي ـ بلا شك ـ تستند إلى المنطقية وتستمدُّ جذورَها من المنهج النقدي الاجتماعي أو التاريخي الذي يعتمد على السياق الخارجي للنص ، وليس التحليل المنطلق من داخله .

من ذلك ما ذهب إليه الدكتور داود سلوم في كتابه (مقالات في تاريخ النقد العربي) حينما رأى أنّ النزعة الأخلاقية والنزعة الفقهية كانتا مسؤولتين عن موقف ابن قتيبة في تقييمه الشعر ، وإقراره بكلِّ نص شعري يقومٍ على ضربٍ من الحكمة والوعظ[٢].

وهذا ما أشار إليه أيضاً الدكتور سعيد عدنان حينما قال : ((إنّ ابن قتيبة فقيهٌ ومحدِّث أولاً ، يعنيه من الشعر ما يتصل بالحكمة والمعنى الصالح))[٣].

إنّ المتطلع في مؤلّفات مَن كتب في تاريخ النقد عند العرب[١] يرى جملةً صالحةً تُعين على فهم منهج ابن قتيبة في الكتابة ، لكنها لم تأتِ بما هو فريد من رأيٍ أو قول . وكأنّ اللاحق يتتبع خطأ

(١) الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط٣ : ٢٨٠/٤ .
(٢) طبعة وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨١ : ١٦٠ .
(٣) الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي عند العرب في العصر العباسي ، سعيد عدنان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ :

السابق . بعبارة أخرى يكادُ كلٌّ الدارسين يتّفقون في الرأي الذي يذهب إلى أنّ كتاب (الشعر والشعراء) لا يستحقُّ أن يقوم دليلاً على فضل صاحبه وريادته باستثناء مقدمته[٢]. الأمر الذي دفع بالدكتور جميل نصيف التكريتي إلى الرد على هؤلاء بوصفهم باحثين لم يتأنّوا في إصدار أحكامهم ، ولم يتحرّوا الدقة في النظر إلى كتابه (الشعر والشعراء)[٣]. على عكس الدراسة التي قام بها الروسي الأرميني (أوهانسيان) الذي كان أكثر موضوعيةً وأدقَّ نظراً من هؤلاء[٤].

إنّ الكتاب على الرغم من بعض المآخذ التي سجّلها الدارسون ومع ما سأوضحُها في قراءتي هذه ، يبقى واحداً من مصادر تراثنا العربي المهم في الأدب والنقد ، ولبنةً أساسية في الرؤية المنهجية الدقيقة لا يمكن لدارس ما أنْ يغفل قيمته النقدية وجودته في التأليف الأدبي . يقول الدكتور التكريتي : ((وبظهوره يَخطو منهج النقد الأدبي عند العرب والدراسةُ الأدبية والتأليفُ الأدبي خطوةً مهمةً إلى أمام))[٥].

ومن أجل إيضاح الرؤية في قراءتي النقدية هذه آثرتُ أنْ أقسِّم البحث على محورين: (الأول) : يكشف عن مميزات هذا الكتاب . و(الثاني) خصصتُهُ لذكرِ بعض المآخذ التي سُجِّلَ قسمٌ منها من لدن السابقين ، والقسم الآخر : ما وجدته شخصياً مأخذاً ـ إنْ كنتُ على صواب في ذلك ـ مع تقديري وإكباري لجهد ناقدنا العربي الجليل ابن قتيبة. فإنْ أصبتُ وأخطأ ابنُ قتيبة ، أو أخطأتُ وأصاب هو فكلانا معرَّضٌ للزلل . والحكم بذلك متروكٌ لمَن يطّلع على هذا البحث .

المحور الأول

إنّ كتاب ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) بمضمونه قيّم جليل ، يكشف عن ثقافة صاحبه ووعيه بأمور الشعر وطبيعة الشعراء . وهذا واضح مما يتلمّسهُ كلُّ قارئ لكتابه المتضمن على ثمرات أدبية ونقدية تعود بالنفع على كلِّ دارس في الأدب العربي . ومن ثمراته تلك هي الآتي :

١. إنّ ابن قتيبة كان له الفضل في تحرير الذهنية النقدية العربية من الانبهار أمام كلِّ قديم ، إذ لم يتحرّج النقاد اللاحقون من هذه المسألة[٦]. كما كان في السابق يتردَّدُ على ألسنة الرواة واللغويين القدامى كأبي عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) ، وحماد الراوية (١٥٦هـ) ، والأصمعي (٢١٦هـ) ، ومن بعدهم ابن سلاّم (٢٣١هـ) في كتابه (طبقات

---

(١) ينظر على سبيل المثال : النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، هند حسين طه ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨١ ، وكتاب : ابن قتيبة مقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية ، د. محمد رمضان الجربي ، المنشأة العامة للنشر ، ط١ ، ١٩٨٤ ، وكتاب : آفاق في الأدب والنقد ، د. عناد غزوان ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، ١٩٩٠ ، وكتاب : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٨١ : ٣/١٠٤-١١٥ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة بين قراءتين ، د. جميل نصيف التكريتي ، المورد ، العدد ٤ ، ١٩٩٩ : ١٠٧ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ١٠٧ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ١٠٧-١٠٨ .

(٥) المصدر نفسه : ١٠٦ .

(٦) ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة بين قراءتين : ١٠٦ ، وينظر : مقالات في تاريخ النقد العربي : ١٦٤ .

فحول الشعراء)[١] الذي أغفل ذكر شعراء كبار معاصرين له كأبي العتاهية ، وبشار بن برد ، وأبي نواس ، والعباس بن الأحنف . وإذا كان ابنُ قتيبة قد سُبق في مسألة إنصاف المحدثين من لدن الجاحظ (٢٥٥هـ) حين قال : ((وقد رأيتُ ناساً منهم يبهرجون أشعار المولَّدين، ويستسقطون مَن رواها [....] ولو كان له بصَرٌ لعَرفَ موضعَ الجيِّد ممّن كان وفي أيّ زمان كان))[٢]. فإنه قد بلور هذا المفهوم وتبناه بصورة نظرية وتطبيقية ، معيباً مَن سبقهً من النقاد قائلاً : ((فإني رأيتُ من علمائنا مَن يستجيدُ الشعر السخيف لتقدُّم قائله ، ويضعُهُ في متخيَّره ، ويرذل الشعرَ الرصين ولا عيب له عنده إلاّ أنه قيل في زمانِه))[٣] ، ويقول أيضاً : ((فكلُّ مَن أتى بحسنٍ من قولٍ أو فعلٍ ذكرناه له))[٤].

٢. استقلال شخصيته ، فنراه قد تعمد ((إلى تحكيم النظر الشخصي والاستقلال بالرأي ...))[٥] من دلائل ذلك معارضتُهُ مَن سبقه من النقاد مثل الأصمعي حين خالفه في حكم على بيتين للأعشى[٦]. أما الباحث الأرميني (أوها نسيان) فيستدلُّ على بروز شخصيتهً شخصيته من خلال حديث ابن قتيبة المجمل عن امرئ القيس وحديثه المفصَّل عن أبي نواس ، فيعزو أوهانسيان تلك الظاهرة إلى رغبة ابن قتيبة في إظهار آرائه الخاصة . والشعور بمسؤوليته كناقد في الحديث عمَّن افتقرتْ إبداعاتهم إلى التقييم[٧].

٣. يُعَدُّ ابنُ قتيبة من أوائل مَن تحدَّث عن الأوقات التي يُستحسن أن يُنظمَ فيها الشعر . ومن تلك الأوقات : ((أول الليل قبل تغشّي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ..))[٨]. إنّ حديث ابن قتيبة عن مرحلة تسبق عملية ولادة النص يوحي إلى تمرّسه في نظم الشعر ، وإن لم يُعرَف هو بذلك .

٤. إنه تنبّه على أثر بعض الشعراء السابقين على بعض الشعراء اللاحقين ، فكانت التفاتته تلك ـ كما يرى عبد الحميد الجندي ـ دعامةً أقامَ عليها مؤلفو السرقات الأدبية مصنّفاتهم[٩].

إنّ تنبُّه ابن قتيبة على ذلك التأثير يشير إلى قدرته على اكتشاف ما تشابه من معنًى بين الشعراء . من ذلك موازنتُهُ الدقيقة بين قول الأعشى :

وكأس شربتُ على لذّتى وأخرى تَداويتُ منها بها

---

(١) ينظر : محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ، د. ناصر الحلاوي و د. ابتسام مرهون ، دار الكتب للطباعة ، ط٢، ١٩٩٩ : ٧٨ .
(٢) الحيوان للجاحظ ، دار الجيل ودار الفكر ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ١٩٨٨ : ١٣٠/٣ .
(٣) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط٣ ، ١٩٧٧ : ٦٨/١ .
(٤) المصدر نفسه : ٦٩/١ .
(٥) النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، دار نهضة مصر ، د.ت : ٢٨ .
(٦) الشعر والشعراء : ٧٨/١-٧٩ .
(٧) ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة بين قراءتين : ١١٣ .
(٨) الشعر والشعراء : ٨٤/١ .
(٩) ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة بين قراءتين : ١١٠ .

وقول أبي نواس :

دَعْ عنكَ لَومي فإنّ اللَّومَ إغراءُ ودَاوِني بالتي كانت هي الدّاءُ

فيقول ابنُ قتيبة عن أبي نواس : ((فسلخه [المعنى] وزاد فيه معنًى آخر))[1]. وهذا النوع من الأخذ بالمعنى والزيادة عليه هو ما يسمّيه النقاد المحدثون بـ (التناص) ، ومن تفرعات التناص ما يسمّى بـ (التوليد)[2] ، ويسمّي (جوناثان كولر) مثلَ هذه الموازنة بـ (الحساسية الأدبية)[3] ، ويسميه الناقد الفرنسي (تودروف) بـ (الخطاب متعدد القيم)[4].

ومن الجدير بالذكر أنّ الجاحظ قد سبق ابنَ قتيبة في الإشارة إلى تأثير بعض الشعراء السابقين بالشعراء اللاحقين قائلاً : ((ولا يُعلَمُ في الأرض شاعر تقدّم في تشبيهٍ مصيبٍ تام ، وفي معنًى غريب عجيب ، أو في معنًى شريف كريم ، أو في بديع مخترَع، إلاّ وكلُّ مَن جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إنْ هو لم يعدُ على لفظة فيسرق بعضَهُ أو يدَّعيهِ بأسرِهِ ، فإنه لا يدعُ أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكاً فيه))[5].

المحور الثاني

لقد وقع ابنُ قتيبة في بعض الأخطاء كان قد تنبَّه عليها مَن جاء بعده ، بل تجاوزها غيرُهُ ممن سبقه ، وهو الجاحظ ، من تلك الأخطاء :

١. إنّه نظر إلى الشعر على أساس منطقي ، لذلك نراه يقسِّم الشعر إلى أربعة أصناف : (أ) ما حسُنَ لفظهُ وجادَ معناه . (ب) ما حسُنَ لفظُهُ وساءَ معناه . (ت) ما ساء لفظه وجادَ معناه . (ث) ما ساء لفظاً ومعنًى .

ويكون بذلك قد وقع في خطأ الفصل بين الشكل والمضمون . وهذا ما يرفضه القدامى عموماً والمحدثون خاصة ؛ لأنّ اللفظ هو الصورة المجسّدة للمعنى ، وهو الكفيل بإيضاحه وارتقائه أو بغموضه وانحطاطه .

وهو كما قال ابن رشيق (٤٦٣هـ) : ((اللفظ جسمٌ وروحه المعنى ، وارتباطُهُ به كارتباط الروح بالجسم))[6] ، فهما وجهان لعملة واحدة لا سبيل إلى تفريقهما . وهذا ما أكّده ابنُ جني (٣٩٢هـ) حينما ذهب إلى أنّ اللفظ الجيد هو الطريق المؤدي إلى المعنى الجيد[1].

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٩/١ .

(٢) ينظر : التناص (تداخل النصوص) في شعر خليل حاوي ، رسالة ماجستير ، رمضان محمود كريم ، ١٩٩٨ : ٣٧.

(٣) ينظر : التأويل بين السيمائيات والتفكيكية ، أمبرتو إيكو ، المركز الثقافي العربي ، ترجمة : : سعيد بنكراد ، ط١ ، ٢٠٠٠ : ١٧٥ .

(٤) ينظر : الشعرية ، تودروف ، ترجمة : شكري المبخوت و رجاء بن سلامة ، دار توبقال ـ المغرب ، ط٢ ، ١٩٩٠ : ٤٠ .

(٥) الحيوان : ٣١١/٣ .

(٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، دار الجيل ، ط٤ ، ١٩٧٢ : : ١٢٤/١ .

٢. إنّ دعوة ابن قتيبة إلى الأخذ من الشعراء المحدثين تبدو ظاهريةً فحسب ؛ لأنه إذا أخذ من المحدثين ولم يتعصب للقدامى ، فإنه لم يترك لهم حرية القول أو ابتكار أسلوب جديد يتناسب وروحَ العصر الذي يعيشه ، فيقول ابن قتيبة : ((وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين))[٢]. هكذا يوجب على الشاعر أن يلتزم ضوابط الشعراء السابقين بصدد التوفيق بين مفاصل القصيدة ، فلا يطيل في الغزل على حساب المديح أو العكس ، ولا يطيل في وصف الرحلة على حساب المدح أو الفخر[٣].

الشاعر المُجيد عنده : مَن اقترب من القدماء واتبع أساليبهم ، وإلاّ لقي الرفض وحُكِم على نتاجِهِ بالرداءة[٤].

وحقيقة الأمر أنّ النقد القديم ـ كما يرى معظم النقاد المحدثين ـ ابتنى ((في مستوى الأصل المعرفي العميق على الوفاق لا على الخلاف))[٥].

وهكذا نجد البلاغة قد وضعت جلَّ اهتمامها على ((تقدير مدى انسجام التجربة الفردية مع الأصول المقررة لا على مدى خروجها عنها وإثرائها لها ، فالشاعر ليس شاعراً من جهة ما يضيف ، وإنما هو شاعر من جهة ما يأخذ ويحتذي))[٦].

إنّ هذه الرؤية الضيّقة والمقيِّدة للنص وَسَمت البلاغةَ العربية ((بتصور (ما هي) بموجبه تسبق ما هيّأت الأشياء وجودها))[٧] ، أي إنها ((تحكم بمقتضى أنماط مسبّقة وتصنيفات جاهزة))[٨].

وبهذا جمَّد البلاغيون فنَّ البلاغة ، فأصبحت قوالبَ جامدةً تبحث في النص الأدبي عن مظهر جمالي حدَّدتْه سلفاً . عندها وجدت الدراسات الأسلوبية حقَّها المشروع كمنهج نقدي حديث يلاحقُ كلَّ ما هو جديد قد خرج عن المألوف[٩]. بعبارة أخرى إنّ الناقد الأسلوبي يضع خطّته لدراسة أيِّ نص على وفق ما يحتويه هذا النص من سمات أو مهيمنات أسلوبية .

إنّ القيد الذي فرضه ابن قتيبة على الشعراء المحدثين ، لم يلقَ التأييد من ابن رشيق الذي أشاد بقول عبد الكريم بن إبراهيم إذ يقول : ((قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيُحسَن في وقتٍ

---

(١) ينظر : الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الهدى ـ بيروت ، ط٢ : ٢١٧/١ .
(٢) الشعر والشعراء : ٨٢/١ .
(٣) ينظر : محاضرات في تاريخ النقد عند العرب : ١٣٩ .
(٤) ينظر : الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي عند العرب في العصر العباسي : ٥١ .
(٥) شعرية الشوقيات ، رأي في مقولة (البدائل) في الخطاب النقدي العربي ، حمادي صمود ، مجلة الفصول ، ج١ ، المجلد الثالث ، ع١ ، ١٩٨٢ : ٥٤ .
(٦) شعرية الشوقيات : ٥٤ ، وينظر : المشاكلة والاختلاف ، عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ١٩٩٤: ٥٥-٥٦ .
(٧) الأسلوبية والنقد الأدبي ، منتخبات من تعريف الأسلوب وعلم الأسلوب ، ترجمة : عبد السلام المسدي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، ع١ ، ١٩٨٢ : ٤٠ .
(٨) المصدر نفسه : ٤٢ .
(٩) ينظر : النقد والحداثة ، د. عبد السلام المسدي ، دار الطليعة ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ : ٤٨ ، وينظر : الأسلوبية والأسلوب ، عبد السلام المسدي ، دار العربية للكتاب ، ط٢ ، ١٩٨٢ : ٤١

ما لا يُحسَن في آخر ، ويُستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره . ونجد الشعراء الحذاق تقابل كلَّ زمان بما استُجيد فيه وكثُر استعماله عند أهله))[١].

يُفهَمُ من هذا كلِّه أنّ موقف ابن قتيبة من الشعراء الجدد وميلَهُ إليهم كان قائماً على أساسٍ فلسفيٍ وليست ثورةً على القديم ومطالبةً بالتجديد[٢]. والأمرُ بهذا يعود بابن قتيبة رجلاً متعصباً ملتزماً بالقديم[٣].

٣. إنّ مَن يتتبع شواهد ابن قتيبة الشعرية يجده قد استشهد بها وهو ينطلق من التزامه الفقهي والأخلاقي ، لذلك لم يكن تقييمُهُ للنصوص مبنياً على أساس مستوى أدائها الفني ، بل على أساس ما تحتويه تلك النصوص من مضامين . ودليل ذلك أنه كان يرفض كل شعرٍ يدور حول غرض الغزل حسّيّاً كان أم عذريّاً على الرغم من جودتهِ في الأسلوب والتصوير ، مَن ذلك قول جرير :

إنَّ العُيونَ الَّتي في طَرفِها حَوَرٌ ... قَتَلنَنا ثُمَّ لَم يُحيينَ قَتلانا
يَصرَعنَ ذا اللُبِّ حَتّى لا حِراكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضعَفُ خَلقِ اللَهِ أَركانا

وقول المعْلُوط :

إنَّ الَّذينَ غَدَوا بِلُبِّكَ غادَروا ... وَشَلاً بِعَينِكَ ما يَزالُ مَعينا
غَيَّضنَ مِن عَبَراتِهِنَّ وَقُلنَ لي ... ماذا لَقيتَ مِنَ الهَوى وَلَقينا

وكذلك قول الشاعر :

يَا أُخْتَ نَاجِيَةَ السَّلاَمُ عَلَيْكُمُ ... قَبْلَ الرَّحِيْلِ وَقَبْلَ لَوْمِ العُذَّل
لَو كُنتُ أَعلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهدِكُم ... يَومُ الرَّحيلِ فَعَلتُ ما لَم أَفعَلِ

بل الأغرب من ذلك ، أنّه يعيب أبياتاً وجدتْ صداها الطيّب عند نقّادٍ كبار أتوا بعده مثل قدامة بن جعفر (ت٣٧٧هـ)[٤] ، وابن جني[٥] ،

والجرجاني (ت٤٧١هـ)[٦] ، وذلك هو قول الشاعر:

فَلَمّا قَضَينا مِن مِنىً كُلَّ حاجَةٍ ... وَمَسَّحَ رُكنَ البَيتِ مَن هُوَ ماسِحُ
وَشُدَّت عَلى حُدبِ المَهارى رِحالُها ... وَلا يَنظُرُ الغادي الَّذي هُوَ رائِحُ
أَخَذنا بِأَطرافِ الأَحاديثِ بَينَنا ... وَسالَت بِأَعناقِ المَطِيِّ الأَباطِحُ

(١) العمدة : ٩٣/١ .
(٢) ينظر : النقد المنهجي عند العرب : ٢٦ .
(٣) ينظر : ابن قتيبة مقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية : ٢٠٠ .
(٤) ينظر : نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت : ٧٤-٧٧ .
(٥) ينظر : الخصائص : ٢١٨/١ .
(٦) ينظر : أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد رشيد رضا ، دار المطبوعات العربية : ١٦ .

ومن تعليقات ابن جنّي قوله : ((فقوله : (بأطراف الأحاديث) يُعلَمُ منه أنّه لا يكون إلاّ جُمَلاً كثيرة))[1].

بذلك فات على ابن قتيبة أن يدرك ((أنّ مادة الشعر ليست المعاني الأخلاقية ، كما أنها ليست الأفكار ، وأنّ من أجودِهِ ما يمكن أن يكون مجرِدَ تصوير فني))[2]. ولا أكادُ أتّفق مع الدكتورة هند حسين طه التي رأت أنّ ابن قتيبة ((أكثرُ إيماناً من ابنَ سلاّم بفنية الأدب ، وأكثرُ تقديراً للشعر الجيد ، والشعراء المُجيدين))[3]. فكيف له بذلك وقد ردَّ هذه الأبيات الحسنة في ألفاظها ومعانيها ؟ ! فقلَّلَ من معناها بعد أنْ نثر الأبيات نثراً ، وفاتَهُ أنّ اللفظ في الشعر قد استُعملَ للدلالة على الصور الدقيقة والمعاني التي تنطوي على تفصيلات لطيفة تُهمَلُ غالباً في التعبير النثري[4]. وهذا ما أشار إليه سعيد عدنان حين رأى أنّ ((ابن قتيبة يبحث عن المعنى النثري في الشعر ، فلم يستطع أن يتذوق المعنى الشعري في الأبيات التي عدّها من الضرب الثاني . فقال عنها أنْ لا فائدةَ في معناها))[5].

٤. خلوُّ بعض من شواهده إلى التعليل ، الأمر الذي حدا بقراءاته إلى أن تكون غير دقيقة في إصدار حكمٍ صائَب في بعض استشهاداته بالنصوص . من ذلك ما يتعلق بالصنف الثالث من أصنافه في الشعر ، وهو : ما جاد معناه وقَصُرت ألفاظه . كما في اعتراضهِ على بيتٍ للفرزدق من حيث رداءة اللفظ :

وَالشَّيبُ يَنهَضُ في الشَّبابِ كَأَنَّهُ لَيلٌ يَصيحُ بِجانِبَيهِ نَهارُ[6]

ولغرض الكشف عن تلك القراءة غير الدقيقة آثرتُ أنْ أُحلِّلَ هذا البيت تحليلاً بنيوياً، وإنّما آثرتُ هذا المنهج بالذات ـ أعني البنيوي ـ ؛ لأنه يعتمد في تحليله على لغة النص. هذه اللغة التي عابها ابن قتيبة على الفرزدق . بل آملُ أنْ أقلبَ المعادلة على العكس تماماً فأُثبتُ أنَّ اللفظ في هذا البيت كان موفَّقاً جداً في إنجاز وظيفته ، بل إنّ المعنى ـ إذا ما نثرنا البيت الشعري ـ رديء ، فكلُّ ابن آدم لا بدَّ أنْ يشيب . بيدَ أنّ براعة الفرزدق في انتقاء الألفاظ هو السبب في أنْ يرتقي المعنى من مستَواه المألوف إلى غايةٍ في التأثير والإبداع .

ويكفينا أنْ نتأمل لفظتي (ينهض) و(يصيحُ) في المعجمات اللغوية لنثبت ذلك :

ففي اللسان : ((نهض للأمر .. قام إلى عدوِّه ، وانتهض القومُ : نهضوا للقتال))[7].

وفي الصحاح : ناهضتُهُ : أي قاومتُهُ . ونهضتُ فلاناً نهضاً : أي ظلمتُهُ[1]. من هذه الدلالات نفهم أن الشيب ـ إذ ينهض ـ فإنه يقوم في الرأس من أجل القتال ، وعدوّه في ذلك هو الإنسان لا شكّ

---

(١) الخصائص : ٢١٨/١ ، وينظر : أسرار البلاغة : ١٦-١٧ .
(٢) النقد المنهجي عند العرب : ٣٥ ، وينظر : نقد الشعر : ٦٦ .
(٣) النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري : ٢٢١ .
(٤) ينظر : نظرية المعنى في النقد العربي ، د. مصطفى ناصف ، دار الأندلس ـ بيروت: ٣٨ .
(٥) الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي عند العرب في العصر العباسي : ٥٠ .
(٦) الشعر والشعراء : ٧٤/١ .
(٧) اللسان ، ابن منظور ، دار صادر ـ بيروت : مادة (نهض) .

. ثمّ إنّ دلالة (المقاومة) التي نجدها في معجم (الصحاح) تعني ـ بدلالة سيمائية ـ وجودَ طرفٍ آخر يرفض (وهو الإنسان) . المعادلةُ إذن كالآتي : الشَّيب يقاوم والإنسانُ يرفض ، وكأنّ ثمّة صراعاً بين كفّتي الشيب (الذي هو كناية عن الموت) والشباب (في إشارةٍ إلى الحياة)) من أجل نفي الآخر وإثبات الذات .

هذا فضلاً عن دلالة (الظلم) التي نجدها في معجم (الصحاح) والتي لا تحتاج إلى تعليق .

أمّا لفظة (يصيح) فهي الأخرى قد احتوت على كثافة دلالية أدّت وظيفتها على ما ينبغي . ففي اللسان : صَيَحَ : صوتُ كلِّ شيءٍ إذا اشتدّ . وصيَّحَ : صَوَّتَ بأقصى طاقته. والصَّيْحة : العذاب ، قال تعالى : { } أي : العذاب . والصَّيحة : الغارة إذا فوجئ الحيُّ بها . والصّائحة : صيحة المناحة[٣].

وفي الصحاح : الصيحةُ : العذاب والصُّراخ والبكاء[٤].

وفي القاموس المحيط : صِيْحَ بهم : فَزِعوا ، وصِيْحَ فيهم : هلَكوا[٥].

إذا كانت كلُّ دلالات (الصيحة) في المعجمات واضحةَ المعنى ، فإنّني سأكتفي بإشارةٍ صغيرة وردت في معجم (القاموس المحيط) .

وأعني بالتحديد الفرق بين حرف الباء في (صيحَ بهم) ، وحرف الفاء في (صيح فيهم) ، فالصيحة مع حرف الفاء تعني : الهلاك ثم النهاية ، أمّا الصيحة مع حرف الباء فإنها تعني : الفزع الدائم من غير هلاك. وهكذا قال الفرزدق : (لَيلٌ يَصيحُ بِجانِبَيهِ نَهارُ).

هذا فضلاً عمّا توحيه لفظة (بجانبيه) من معنى . ثم التركيب الإسنادي المتجاور في لفظتي (ليلٌ يصيحُ) ، ثم تشبيه الشيب بـ (النهار) ، وسواد الشعر بـ (الليل) .

يبقى من الضرورة أن أشير إلى أنّ هذا البيت قد لقي استحساناً عند المبرّد (ت٢٨٥هـ) في كتابه (الكامل في اللغة والأدب)[٦].

٥. آخر المآخذ التي لا نريد أنْ نلومَ فيها شيخَنا ابنَ قتيبة الذي عاش في القرن الثالث للهجرة وتوفي فيه ، هو انتقادُهُ للألفاظ الوحشية التي استخدمها بعض الشعراء ، من غير أنْ ينظر إلى طبيعة الموقف الخارجي للنص الذي يحتّمُ على الشاعر أحياناً أن يتعمّد ذكر هذه الألفاظ ، وإنْ كان الجاحظ الذي سبقه أو عاصره قد تنبّه على مثل هذا الأمر[٧]. ومن بعده ابن سنان

---

(١) ينظر : الصحاح ، الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ـ بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٤ : مادة (نهض) .

(٢) سورة الحجر : من الآية ٧٣ .

(٣) ينظر : اللسان : مادة (صيح) .

(٤) ينظر : الصحاح : مادة (صيح) .

(٥) ينظر : القاموس المحيط ، الفيروزابادي ، دار الجيل : مادة (صيح) .

(٦) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ : ٣١/١ .

(٧) ينظر : البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، ط٥ ، ١٩٨٥ : ١٤٤/١-١٤٦ .

(ت٤٦٦هـ)[١] ، فابن قتيبة يورد بيتاً لجرير كان قد أنشده على أحد خلفاء بني أمية وهو الوليد بن عبد الملك قائلاً :

وَتَقولُ بَوزَعُ قَد دَبَبتَ عَلى العَصا هَلاّ هَزِئتِ بِغَيرِنا يا بَوزَعُ

فيعيبُ عليه الخليفةُ استخدامه لاسم المرأة وهي (بوزع) ، فيؤيده ابن قتيبة في ذلك . ونحنُ لو تأمّلنا موقفَ جرير مع هذه المرأة لأدركنا أنّ جريراً ذلك الرجل الهجّاء قد تعمّد ذكر اسمها مرتين . فالمرأة تسخر منه لكونه صار طاعناً في السنّ ويتّكئ على العصا . فأرادَ أن يسخر منها هو الآخر ، فأدركَ بذكائه وإجادته في الهجاء أنّ قُبح اسمها خيرُ سلاح له في هذه الحرب الكلامية .

إنّ سياق النص الخارجي / الموقف هو الذي يدفع المتكلم إلى استخدام ألفاظٍ تناسبُ ذلك . بل لا يمكن لغيرها أن تؤدي ما أدّتْهُ هذه اللفظةُ أو تلك في النص . والجاحظ أشار بذكاء وبصيرة إلى طبيعة هذا الأمر قائلاً : ((إنّي أزعمُ أنّ سخيفَ الألفاظ مُشاكلٌ لسخيف المعنى))[٢]. وأدرك أيضاً أنّ النكتة تفقد تأثيرها إذا ما حُكيت باللغة الفصحى[٣]. وقيل قديماً: إنّ لكلِّ مقامٍ مقالاً . وإلاّ ماذا سنقول في شاعرٍ كبير مثل بشار بن برد حين قال :

رَبابَةُ رَبَّةُ البَيتِ تَصُبُّ الخَلَّ في الزَّيتِ
لَها عَشرُ دَجاجاتٍ وَديكٌ حَسَنُ الصَّوتِ ؟

سوى أنّه قال هذا الشعر في موضع مفعمٍ بالمزاح والمرح .

وماذا سنقول في قول عيسى بن عمر ذلكَ الرجل النحوي حين سقط عن دابّته وهو يمرُّ في السوق : ((ما لكم تكأكأتُم عليَّ تكأكؤكم على ذي جِنّة ؟ افرنقِعوا عنّي)) ؟ سوى أنه أراد أنْ يُشغل الحاضرين عن موقف سقوطه عن دابته بهذا الكلام الوحشي .

وماذا سنقول عن قول امرئ القيس :

غَدائِرُها مُستَشزِراتٌ إِلى العُلا تَضِلُّ العِقاصَ في مُثَنّىً وَمُرسَلِ ؟

سوى أنّه أراد أنْ يصف شَعرَ خليلتِهِ بتنافره وفوضويّته ، فذكر لفظتَه (مستشزرات) بحروفها ذات المخارج المتقاربة القبيحة الوقع على الأذن .

هذا كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة الرجل المعتزلي ، يبقى ـ على الرغم من بعض المآخذ التي سُجِّلت عليه ـ وثيقة تاريخية لشعرائنا العرب ، يملأ صفحاتِها رجلٌ من المعتدلين الثقاة ، يُعتَدُّ بقوله في الرأي النقدي ويُسَلَّم بأمانته . احتوى جزآهُ على ثمار ثمينة في الأدب والنقد لا يفتأ الدارسون والنقاد ينهلون من رؤاه النقدية ، ويتعرفون من خلاله على إبداعاتِ شعرائنا التي أجاد

(١) ينظر : سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢ : ٦٩-٧٠ .
(٢) البيان والتبيين : ١٤٥/١ .
(٣) ينظر : نفسه : ١٤٥/١-١٤٦ .

ابنُ قتيبة في انتقاء أجود ما فاضت به قرائحهم ، ومن غير أنْ يتحرّج بذكر الشعراء المحدثين[1] الذين طالما غضَّ مَن سبقه من النقاد من نتاجاتهم ؛ بسبب تعصُّبهم للقديم ومعاداتهم لكلِّ ما هو جديد إذا ما استثنينا من ذلك الجاحظ.

وإذا كنا قد بيّنّا بعض المآخذ على شواهده الشعرية من خلال تطبيق منهج حديث في التحليلِ ، فإننا نلتمس له العذر في بعض هناتهِ . فلا ينبغي لنا أنْ نطالب ـ ونحن في عصرنا هذا ـ رجلاً عاش وتوفي في القرن الثالث الهجري أن يكون على هذه الدقّة في أحكامه النقدية . ويكفي نقّادَنا القدامى أنْ مهَّدوا لنا الطريق وفتّقوا لنا الذهن للنظر المعمّق إلى النصوص الأدبية .

ثبت المصادر والمراجع

- آفاق في الأدب والنقد : د. عناد غزوان ، دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ، ط١، ١٩٩٠.
- الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي عند العرب في العصر العباسي : سعيد عدنان، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ .
- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد رشيد رضا ، دار المطبوعات العربية .
- الأسلوبية والأسلوب ، نحو بديل ألسني في نقد الأدب : عبد السلام المسدي ، دار العربية للكتاب ، ط٢ ، ١٩٨٢ .
- البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، ط٥ ، ١٩٨٥ .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٨١ .
- التأويل بين السيمائيات والتفكيكية : أمبرتو إيكو ، المركز الثقافي العربي ، ترجمة: سعيد بنكَراد ، ط١ ، ٢٠٠٠ .
- التناص (تداخل النصوص) في شعر خليل حاوي ، رسالة ماجستير : رمضان محمود كريم ، ١٩٩٨ .
- الحيوان : للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ودار الفكر ، ١٩٨٨.
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الهدى ـ بيروت ، ط٢ .
- سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢.
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط٣ ، ١٩٧٧ .
- الشعرية : تودروف ، ترجمة : شكري المبخوت و رجاء بن سلامة ، دار توبقال ـ المغرب ، ط٢ ، ١٩٩٠ .
- الصحاح : الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ـ بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٤ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني ، دار الجيل ، ط٤ ، ١٩٧٢ .

(١) ينظر على سبيل المثال ذكره لأبي نواس : ٨٠٠/٢ ، وبشار بن برد : ٧٦١/٢ ، وأبي العتاهية : ٧٩٥/٢ ، والعباس بن الأحنف : ٨٣١/٢ ، وغيرهم .

- القاموس المحيط : الفيروزابادي ، دار الجيل .
- ابن قتيبة مقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية : د. محمد رمضان الجربي ، المنشأة العامة للنشر ، ط١ ، ١٩٨٤ .
- الكامل في اللغة والأدب : المبرد ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ـ بيروت .
- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب : د. ناصر الحلاوي و د. ابتسام مرهون الصفار ، دار الكتب للطباعة ، ط٢ ، ١٩٩٩ .
- المشاكلة والاختلاف : عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، ١٩٩٤ .
- مقالات في تاريخ النقد العربي : د. داود سلوم ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨١ .
- نظرية المعنى في النقد العربي : د. مصطفى ناصف ، دار الأندلس ـ بيروت .
- النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري : هند حسين طه ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨١ .
- نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
- النقد المنهجي عند العرب : د. محمد مندور ، دار نهضة مصر ، د.ت .
- النقد والحداثة : د. عبد السلام المسدي ، دار الطليعة ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ .

الدوريات

- الأسلوبية والنقد الأدبي ، منتخبات من تعريف الأسلوب وعلم الأسلوب ، ترجمة : عبد السلام المسدي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، ع١ ، ١٩٨٢ .
- شعرية الشوقيات ، رأي في مقولة (البدائل) في الخطاب النقدي العربي ، حمادي صمود ، مجلة الفصول ، ج١ ، المجلد الثالث ، ع١ ، ١٩٨٢ .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة بين قراءتين ، د. جميل نصيف التكريتي ، المورد ، العدد ٤ ، ١٩٩٩ .